المحاضرة السادسة : علم السرد

د: رويدي عدلان

تمهيد:

شهد القرن العشرين أزهى فت ا رت النقد الأدبي في أوروبا، خصوصا مع ظهور اللسانيات الحديثة التي غيّرت مجرى الدراسات اللغوية، وقلبت مسار النقد الأدبي نحو الاهتمام ببنية النصوص الأدبية نفسها بعيدا عن فكرة السياقات الخارجية، وقد أسهم الشكلانيون الروس بدورهم في نمو الحركة النقدية في تلك الفترة التي لا تبتعد عن فترة ظهور اللسانيات، حيث شهدت أفكارهم رواجا كبيرا في الساحة النقدية الأوروبية، سواء ما تعلق بدراسة اللغة الشعرية، أو ما يشمل النصوص النثرية، وما زالت تؤثر حتى الآن، لذلك أسهمت أفكارهم وتصوراتهم لطبيعة النصوص السردية في ميلاد علم مستقل يشتغل على تحليل هذه النصوص، ود راسة أبنيتها الشكلية والعميقة وهو علم السرد، هذا العلم الذي حفظ مكانته ضمن باقي حقول النقد الأدبي، وحمل على عاتقه مسؤولية مقاربة مختلف الخطابات السردية، ليشهد فيما بعد تطورات عديدة على يد مجموعة من النقاد والدارسين، الذين شكلوا مشاريع نقدية جديدة أكثر حداثة ودقة ومنهجية، منطلقين من الإرث النقدي الذي خلّفه لهم الشكلانيون الروس.

1تعريف علم السرد- :

ورد تعريف علم السرد في كتاب دليل الناقد الأدبي كما يلي" هو دراسة النص واستنباط:الأسس التي يقوم عليها وما يتعلّق بذلك من نظم تحكم إنتاجه وتلقيه، ويعدّ علم السرد أحد التفريعات البنيوية الشكلانية، كما تبلورت في دراسات كلود ليفي شترواس ثمّ تنامى هذا الحقل في أعمال دارسين بنيويين آخرين منهم البلغاري تزفيطان تودوروف الذي يعدّه البعض أوّل من استعمل مصطلح(ناراتولوجي)علم السرد، والفرنسي غريماس والأمريكي جيرارد برانس، وعرفت مجموعة من التغييرات تحت مظلة ما بعد البنيوية(رولان بارت)، أو ما بعد الماركسية(فريديريك جيمسون [1] ، فعلم السرد يعدّ سليل البنيوية الشكلية حسب صاحبا الكتاب، لكن هذا العلم ليس مستقلا عن علوم اللغة الأخرى، فهو يتداخل مع السيميائية أو علم العلامات.

2علم السرد الأصول والمرجعيات- :

لم يتشكّل علم السرد كعلم متكامل ذو شرعية علمية، وانّما خطى خطوات عديدة عبر مشاريع مختلفة لمجموعة من النقاد والدارسين، الذين كانت لهم تصوّرات وآراء في مقاربة الفنون السردية، و مازال حتى الآن يستفيد من مختلف النظريات والدراسات

[1] ميجان الرويلي وسعد البازعي :دليل الناقد الأدبي، ص174

النقدية التي تفتح له أبواب جديدة في مقا ربة النصوص الأدبية، مقاربة دقيقة تستجلي ما هو مضمر داخل هذه الخطابات الأدبية.

ويمكن اعتبار الشكلانيين الروس من أوائل المنظّرين الذين قدّموا جهودا كبيرة في هذا الحقل الد ا رسي، وشكّلوا مجموعة من التصورات التي تتعلق بطبيعة الأعمال الحكائية والقوانين التي تحكمها، وبنياتها الداخلية وعناصرها الشكلية المنتظمة التي تشكّل مفاصل النص، فخلّفوا بذلك نظريات في علم السرد، صارت فيما بعد قاعدة أساسية في مقاربة النصوص السردية بل وضرورة حتمية في تحليلها، وحتى الدراسات اللاحقة انطلقت من أعمال الشكلانيين الروس لتشكّل بدورها نظريات سردية أخرى بوجهة نظر مختلفة، كما ظهر ذلك جليا مع غريماس وسوريو وتودوروف وجيرار جينيت، وكلود بريمون.

وقد اهتم الشكلانيون الروس بمختلف فنون الأدب ومن ضمنها الحكاية، ويعدّ فلاديمير بروب vladimir propp الباحث الوحيد في الاتجاه الشكلاني الذي تعمّق في دراسة الحكاية تعمّقا مكّنه من استخراج بنيتها .ويعتبر كتابه الموسوم مورفولوجية الحكاية (Morphologie du conte)من الكتب الحاسمة في تطوّر الدراسات البنيوية والسيميائية، والنموذج الأكثر في بحوث الشكلانين،[2] ويعتبر مفهوم الوظيفة من المفاهيم الأساسية المبتكرة في نظريته حول النصوص السردية، إنّ الدراسة الاستقصائية التي قام بها ف.بروب قادته إلى الاقرار

0222 . (2) ، ص 01 ،

بأنّ عدد الوظائف التي تتحكّم في الحكايات الشعبية تبلغ إحدى وثلاثين .ليس شرطا أن ترد هذه الوظائف التي تخضع لنظام ثابت [3](1) ، وهناك وظائف رئيسية عددها سبعة، وهذا النموذج لا ينطبق فقط على الحكاية الشعبية الخ ا رفية ولكن يمكن أن يشمل حكايات وقصص أخرى.

والى جانب فلاديمير بروب نجد ناقدين آخرين نحا نفس منحى بروب وهما شكلوفسكي وتوماشفسكي اللذان عنيا بدراسة(القصة)وتفريقها عن(الحبكة)ودرسا مصطلحات (المبنى الحكائي)و(المتن الحكائي)كما فعل بر وب أيضا [4]ا (2) ، فكانت هذه الدراسات لبنة أساسية لظهور دراسات أعمق قاربت عناصر السرد كعنصر الزمن مع جيرار جينت في" خطاب الحكاية "و فيليب هامون في دراسته للشخصية من خلال مؤلفه المشهور" سيميولوجيا الشخصية السردية"، ومن بين المفاهيم السردية التي جاء بها توماشفسكي مفهوم الحافز الذي أطلقه على أصغر وحدة من الحبكة [5]ة (3) ،

[2] رشيد بن مالك :مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط1 2000ص29

[3] .رشيد بن مالك :مقدمة في السيميائية السردية، ص29

[4] .بسام قطوس :المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص 80

[5] .بسام قطوس :المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص87

وقد أصبح من العناصر المهمة ضمن الدراسات التي جاءت فيما بعد، حيث فصّل جيّدا في أنماطه ودوره ضمن منظومة السرد.

3تطور علم السرد- :

شهد علم السرد بعد الجهود التي قدّمها الشكلانيون الروس تطو ا رت عديدة عبر مراحل متفرقة من تاريخ ظهوره، حيث ظهرت مشاريع نقدية كثيرة، كما أشرنا من قبل انطلقت من أعمال الشكلانيين الروس لتشكل نماذجها الخاصة في مقاربة النصوص السردية، ومن ضمن الأسماء النقدية التي داع صيتها في حقل الدراسات السردية الغربية نجد ميخائيل باختين، جوليان غريماس، وتزفيطان تودوروف وجيرار جينيت وجوليا كرستيفا وجيرار برانس

3 1جهود غريماس- - :

خلّف الموروث النقدي الشكلاني تأثيرا كبيرا على مستوى الساحة النقدية العالمية، وترك بصماته بارزة خصوصا في مجال الدراسات السردية، حيث كانت جهود هؤلاء الدارسين المنطلق الرئيسي لمختلف الأعمال اللاحقة، ويعدّ فلاديمير بروب الأكثر تأثيرا في حقل الدراسات السردية خصوصا ما تعلق بدراسات القصص والحكايات، وأسهم في ظهور شخصية نقدية أخرى انطلقت من منجزاته التنظيرية وهي شخصية جوليان غريماس، هذا الناقد الفرنسي ذو الأصول الليتوانية، انطلق من النموذج البروبي ليشكل نظرية خاصة به سميت بالنموذج العاملي فارتبطت باسمه، ويصوغ غريماس انطلاقا من هذا النموذج نتيجة مغايرة للمسلمة البروبية التي تحملنا على الاعتقاد بأنّ الحكاية مبنية على التتابع الكرونولوجي للمهمات، ذلك أنّ التمفصل المنطقي للبناء السردي يجري مجرى التتابع المعكوس [6] ومنه هنا بدأ غريماس طرح أفكاره التي تتعلق بهذا النموذج الجديد الذي يختلف عن النموذج السابق، وقد سخّر جهوده إلى جانب زميله جوزيف كورتيس Joseph Courtés ، في دراسة نشاط العوامل وتحليلها داخل النصوص السردية، ليفتحانه على أبعاد أخرى بعد معرفي يتأسس عليه الإيعاز والتقويم وبعد تداولي ندركه من خلال عمل الفاعل [7]

وقد لقيت نظرية غريماس هاته رواجا كبيرا في أوروبا وحتى في المشهد النقدي العربي، وفي المغرب العربي خصوصا، وفي الدراسات المتعلقة بالأدب الشعبي على وجه الخصوص فنجد في تونس محمد ناصر العجيمي، ونجد في الج ا زئر رشيد بن مالك الذي يعدّ من الأوائل الذين أدخلوا هذه النظرية في النقد الجزائري في كتبه المختلفة المتعلقة بالسيميائية السردية، إلى جانب عبد الحميد بورايو في دراساته

[6] .رشيد بن مالك :مقدمة في السيميائية السردية، ص34

[7] .رشيد بن مالك :مقدمة في السيميائية السردية، ص 34

الانثروبولوجية، وبحوثه المتعلقة بالأدب الشعبي، والسعيد بوطاجين في كتابه " الاشتغال العاملي "إلى جانب دراسات أخرى عديدة جاءت في وقت لاحق.

3 2جهود تودوروف- - :

يمثّل تودوروف مرحلة مهمة من م ا رحل تطوّر الدراسات السردية الحديثة، حيث استفاد من منجزات الدرس الشكلاني الروسي، واشتغل على دراسة هذا المروروث النقدي وتحليله، فالشكلانية الروسية أفكارها لم تصل إلى أوروبا إلاّ بعد خمسة وثلاثين عاما حين ترجمها تودوروف إلى الفرنسية سنة 1965 فأصبحت أحد مصادر البنيوية الفرنسية [8] وشكّل دراسة متميزة في قضية التعامل مع النصوص السردية، كما عدّه البعد أوّل من اعتمد مصطلح علم السرد، وقد خلّف العديد من الكتب النقدية التي تركت بصماته بارزة في هذا العلم، ومنها كتاب" الشعرية"، وكتاب" مفاهيم سردية"، وله العديد من المؤلفات الأخرى التي تتعلق بالفكر والدراسات الثقافية، ككتاب" الأدب في خطر"، ومازال هذا المشروع النقدي يؤثر بأفكاره في الدراسات النقدية المعاصرة سواء في أوروبا أو البيئة العربية، حيث ترجمت العديد من كتبه النقدية إلى العربية، من طرف مترجمين تونسيين، كشكري المبخوت ورجاء بن سلامة اللذان ترجما كتاب "الشعرية"، أو الجزائريين أمثال عبد الرحمن مزيان الذي ترجم كتاب" مفاهيم سردية"، وهكذا يبقى تودوروف علامة فارقة ضمن المشهد النقدي الغربي المعاصر.

3 3جهود جيرار جينيت- - :

يعتبر جيرار جينيت أحد أقطاب النظرية السردية المعاصرة، حيث استفاد من التراث الغربي القديم والبلاغة اليونانية والأرسطية من جهة، كما استفاد من انجازات اللسانيات وعلوم اللغة والسيميائيات من جهة أخرى، وهذا من خلال ابتكاره لمجموعة من الإجراءات والمفاهيم التي تخصّ مكوّنات السرد وتصنع شعرية النصوص السردية.

ومن ضمن هذه العناصر التي تشكّل هذه الشعرية، عنصر الزمن داخل الرواية، أين ألّف كتابه العمدة" خطاب الحكاية"، وحدّد فيه اشتغال الزمن وتعرّجاته في رواية بحثا عن الزمن الضائع للكاتب الفرنسي مارسيل بروست، فصار مرجعا مهمّا في دراسات الزمن الروائي، كما حاول تطوير نظريته في كتابه الثاني" عودة إلى خطاب الحكاية."

والى جانب عنصر الزمن اشتغل جيرار جينيت في مشروعه النقدي الموسّع على دراسة خطابات أخرى لا تقلّ أهمية عن الخطابات الواردة في المتون الروائية وهي النصوص الموازية، التي جعل لها شعرية متميزة تشكلّ المعمارية الروائية ككل لذلك لابدّ لها من

[8] .محمد عزام :تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية دراسة في نقد النقد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2003ص20

استراتيجية في القراءة، وقد جاء هذ الجهد النقدي تتويجا لدراساته السابقة التي تتعلّق بدراسة عناصر السرد، فظهرت له العديد من المؤلفات الكثيرة، بداية مع كتابه (صور)، ثم(جامع النص) ليحقق جينيت في كتابه عتبات ما كان أجله في كتاباته السابقة بتوسيعه لدائرة الشعريات وتنويعه لمداخلها بتخصيصه هذا الكتاب لأحد المواضيع المعقدة للشعريات / وهو المناص [9]وهذا يحسب لهذا الناقد الذي فتح بابا جديدا في مجال الشعرية وقراءة النصوص السردية وهو باب العتبات النصية، لذلك فتحت هذه الدراسات النظرية آفاقا جديدة للدرس السردي والشعري، من أجل مقاربة أكثر دقّة وعلمية للخطابات الأدبية والروائية على وجه الخصوص، والكشف عن الجوانب الجمالية داخل هذه الخطابات، وهذا لا يتمّ إلاّ من خلال القراءة الواعية، ومن ثمّ أراد خلق طقوس جديدة في قراءة الخطابات.

وعموما لم يسلم علم السرد من الزعزعة والتغيير نتيجة الانتقال إلى مرحلة ما بعد البنيوية التي زعزعت قناعات وثوابت كثيرة في البحث النقدي والثقافي عموما، من خلال توجيهات القارئ(رولان بارت)أو موقف الثقافة من المرأة في النصوص السردية [10]، فقد ألّف رولان بارت كتاب" لذّة النص "ووضع للقراءة طقوس جديدة من أجل فتح أفق ق ا رئي أوسع، حيث ربط فعل القراءة باللذة الجنسية، من أجل إنتاج المعنى وتفتيق الحمولة الدلالية للنص، فمداعبة النص تشبه مداعبة الأنثى، ومن ثمّ تتحقق متعة القراءة، التي تنقل القارئ من أفق ضيّق نحو آفاق واسعة للتأويل، وهكذا فتح رولان بارت علم السرد على عوالم جديدة يكون للقارئ الدور المحوري في إنتاج الدلالة وفتح أفق القراءة.

والى جانب رولان بارت قدّمت الدراسات الثقافية الحديثة استراتيجية جديدة في التعامل مع النصوص السردية خصوصا الروائية منها، وذلك بالحفر عمّا هو مضمر ومهمّش داخل الخطابات وتفكيكها، كخطاب ما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي اللذان يعملان على إعادة الاعتبار للهوامش على حساب المركز، وهذه القراءات الجديدة فتحت النصوص السردية على عوالم أوسع تتعلق بالتاريخ والثقافة والمجتمع.

---

[9] بد الحق بلعابد :**عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص**، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الإختلاف، الجزائر، ط 1 2008ص21

[10] . ميجان الرويلي وسعد البازعي :دليل الناقد الأدبي، ص 176